

أسباب التقليد

في التعليم والتشريع

بمصر الحديثة

للدكتور محمد البهى قرقر

في مقال سابق^(١) حاولت أن أبين أن التقليد هو أساس التعليم تشريع اليوم في مصر، أساس التعديل في برامج التعليم والتغيير القوانين المدنية والجنائية، وخصصت بالذكر هاتين الناحيتين هما مظهر الأمة الثقافي والطابع العقلي الذي يعبر عن نفسه « الشعب ».

وإذا ذكرت التقليد فلا أريد منه الناحية الإيجابية التي أن تشجع ونُتمى في زمن الطفولة، فذلك لم يكن هو النظريةائدة في التعليم والتشريع بمصر، وإنما أقصد النوع السلبي الذي ذاك، أقصد النوع الذي لا يمتدى محاكاة الظواهر المقلدة ولا إلى كيفية تكوينها وهو الذي تدفع إليه الماطفة المجردة عنية . ولهذا قلنا نتخذ الظاهرة المقلدة صفة الثبات والاستقرار، حرمان ما تنمحي من الوجود إذا خفيت الماطفة التي بعثت علىها أو تقلبت عليها عاطفة أخرى تحمل على تقليد مظهر آخر.

لكل كاتب أو مؤرخ أن يبدى رأيه في علل هذا التقليد يوضح الباعث عليه . له أن يعتقد مثلاً أن السبب هو رغبة الحديثة الفتية النشأة في مسايرة المدنية الحاضرة والتقدمية إلى مصاف الدول الراقية، فهي لذلك لا غنى لها عن التقليد، بغير إذن من أن تتمتع في طريقه مرة أو أكثر . ولكن د الناس عن مثل هذه الرغبة في الأمم الأخرى هو دائماً سياسة مرسومة ثابتة نعرف إلى أي شيء تنتهي وأي طريق « ، فهو نوع إيجابي من التقليد، وذلك مالا أعتقد في الحركة دية السائرة اليوم في مصر لأنها حركة هوجاء متقلبة، تهدم ما بنته بالأمس، وتبنى في الغد من جديد على غير أساس .

لذلك الكاتب أو هذا المؤرخ أن يعتقد أيضاً أن العلة هي

الضعف، إذ يشاهد أن الأمة الضعيفة تقلد القوة في مظاهرها لأنها ربما تتخيل الجمال مفرغاً في تلك المظاهر — فهي لا تحمطها لم تكون عندها ملكة مستقلة للجمال، مطبوعة بطابعها الخاص، أو على الأقل لم تنضج عندها تلك الملكة بعد، أو لأنها ربما تحاول بذلك أن تستر ما بها من ضعف ونقص؛ فإدام شعار القوى مثلاً هو القبة، أو ما دامت ميزته في قوم هو ليس منهم العجمة في التعبير، فرمما يُخيّل الضعيف لنفسه إذا ما وضع القبة فوق رأسه، أو إذا ما أفصح عن مراده في أمته بغير لغته الوطنية، أو لهج لسانه من حين لآخر بكلمات أجنبية، أنه قد أصبح في منزلة القوى وأن له أن يقيه كبراً وخيلاء، ولم يدر أن سلوكه العمل الناشئ عن صفات نفسية خاصة به، وأن طريقه في التفكير الخاضع لبيئته وما ورثه في دمه عن أسلافه ينم عن أنه ما زال هو الضعيف، ولكنه تزيى بزى القوى فخسب .

وربما يكون الضعف هو السبب الرئيسي والعلة غير المباشرة لكثير من صور التقليد، ولكن البحث النفسي الحديث يتجنب الآن بقدر الامكان استنتاج قوانين عامة لجملة من الظواهر النفسية — لأن ذلك قد مضت مدته بفقدان العلوم الطبيعية والرياضية نفوذها على العلوم العقلية، وتأثيرها في تكوين كليات لها عامة تشرح بها جزئيات متعددة — ويقتصر لسكل ظاهرة عن عللها الخاصة بها والمباشرة في تكوينها .

والتقليد الآن في مصر في أهم ناحيتين من نواحيها الثقافية والعقلية : في ناحيتي التعليم والتشريع، ظاهرة تقلب على نفسه الشعب، أو ببساطة أدق على رجاله المسئولين في توجيه سياسته العامة . وإذن لبحث هذه الصفة يجب استعراض المؤثرات التي أوجدتها في نفسية هؤلاء وتمهدها إلى درجة النضوج . وأظن أننا إذا رجعنا بصرنا إلى تاريخ مصر الحديثة في جيل سابق وجدنا تلك المؤثرات بادية في شيء واحد : في الابتعاد عن التربية الوطنية الذي كان نتيجة الخطوة إحدى مدارس التعليم في مصر وسياسة أخرى تعليمية كانت تهيم على مدرسة ثانية منها .

فالتعليم في مصر ليس واحداً، والمدرسة التي تخرج منها الشعب متباينة النزعة مختلفة الغرض . فبينما ترى مدرسة وطنية، وهي الأزهر، تعتمد في تهذيب أبنائها على ما ورثته الأمة من ثقافة

في صورتها التي احتفظت بها من عصور مضت ، إذا بنا نرى مدرسة أخرى ، وهي مدارس الرسائل الأجنبية ، تلقن الناشئة المصرية مبادئ تنتهي بخلق أمم متعددة في أمة واحدة ، وبفئات من الناس مختلفة لا تجمعهم وحدة في التفكير ولا وحدة في الغرض . وبيننا نشاهد هذه وتلك إذا بصيرنا يقع مرة أخرى على مدرسة ثالثة ، وهي مدارس وزارة المعارف ، ليس بينها وبين اللتين قبلها من صلة إلا أنها ربما تكون أو تحاول أن تكون مزيجاً منهما ، ولكنه مزيج لا ينتج عنصراً جديداً كما فقدت فيه كل من مادتيه خواصها .

فالأزهر — في نظر علماء الشعوب والاجتماع — لا شك أنه المدرسة الوطنية التي تربط الأمة بماضيها — وإن كان ينقصها ربط الحاضر بالماضي ، وتلقن جيل اليوم ما كان خلفه من دين ولغة وعادات خلقية وقومية ، وهو لهذا كان ولم يزل مكان الخطر على الاستعمار الغربي وعلى سياسته في حكم الشعوب الإسلامية كما يراه الأوربيون أنفسهم الذين تخصصوا في السياسة وفي فلسفتها . ففي المجلة ^(١) العلمية السياسية الألمانية « Valf in Werden » لمخرجه الأستاذ الفيلسوف السياسي Ernst Kriek الأستاذ بجامعة Heidelberg ، بحث جدير بالاعتبار عرض كاتبه لبيان صلة الاسلام ومقدار علاقة الأزهر على الخصوص بالحركات الوطنية في الشرق تحت عنوان « الاسلام والفاشية » فكتب هذا البحث يرجع الحركة الوطنية الحالية ضد السيادة الفرنسية في تونس ومراكش والجزائر إلى الأفراد الذين غلبت عليهم الدراسة الوطنية — الإسلامية — وعلى الأخص إلى أولئك الذين تلقوا علومهم في الأزهر بالقاهرة . فالأزهر في رأى هذا الكاتب وفي رأى كثير من أمثاله منبع الخطر على السيادة الأجنبية في الشرق كله .

وفوق ما للأزهر من هذه الصبغة الوطنية فهو مدرسة الشعب والسواد المنتج من الأمة . ولسبب ما ، إما لأسلوبه في التعليم « وعدم تمثيه في وقت من الأوقات على نظم التربية الحديثة » ، أو لشعبيته ، أو لسبب آخر غير هذا وذلك ، ولت الطبقة الثرية من الأمة من أرباب المناصب الكبرى في الحكومة وجهها

نحو مدارس الرسائل الأجنبية ، وقصدت الطبقة المتوسطة إلى النوع المزيج وهو النوع الحكومي ، وقنع الأزهر بالشعب وبأبنائه طوعاً أو كرهاً ، واضطر لهذا أن يكون بعيداً عن أفق سياسة الدولة ، لأن سيادة الروح « الأرستقراطية » وجدت في ظل الحكم التركي ثم في حكم الاحتلال كل أنواع التأييد فأسلوب التعليم في هذه المدرسة بعيد في ذاته عن الهيئة إلا موجة التقليد الطالفة اليوم في مصر والتي تنذر بالخطر ، لأنه ه نفسه ضد التقليد والعقبة في طريقه ، وكذا رجالها ليسوا هم يتبعون سياسة التقليد لأنهم أبعدوا عن السياسة العامة للدولة واكتفوا بالتحدث إلى الشعب عن الحياة الآخرة والسبل الموصلة إلى السعادة فيها ، وإن فرطوا بهذا الاكتفاء في حق أنفسهم كأبناء الشعب وفي حق دينهم لإظهاره بالظهر الروحي فشب ، أخيراً في حق وطنهم لإقصاء أنفسهم وهم أكثرية عن سيادة توجيه الأمور في الدولة أو لرضائهم بهذا الإقصاء

والمدرسة الثانية ، وهي مدارس الرسائل الأجنبية كما — ولا تزال — تعمل على قطع الصلة بين الوطن وتراثه العا والديني والخلق ، وبين أطفاله وشبابه من أهل الطبقة العالية الذين ولوا الأمر فيما بعد ؛ إذ كانت القاعدة أن ينتخب أولو الأمر منهم ثم زودتهم بثقافة أجنبية ملؤها الدعاية لأمة من أمم الغرب ط لجنسية الإرسالية . وإن نوع هذه الثقافة قد يكون مخ — وفي الواقع ^(١) هو كذلك — عن ثقافة البلد الذي تنتمي الإرسالية اتباعاً لخطه سياسية مرسومة لم يرد بها — كما به أو كما يفهمه الشرقي البسيط — القيام بعمل خيري من نشر حديثة ومكافحة لأمية ؛ وإنما قصد بها ضمان السيطرة على النفوذ والتصرف في ميولها ؛ فنشأت في الأمة فئة تجهل الأمة نفسها تجهل عقليتها وطباعها ، تحقر الشعب وتهزأ بتقاليده ، ثم بعد

شاء القدر أن يكون زمامه بيدها ولاختلاف ميول هذه الثقافة واتجاهاتها — وإن ك

(١) في المجلة المذكورة بشر الكاتب (صفحة ٣٤٣) إلى أن في نفسها لا يوجد دروس الدين في أية مدرسة من مدارسها بينما الحكومة الفرنسية في شمال أفريقيا البشرين والرسائل التعليمية حدية في نشر الدين المسيحي بين الوطنيين بنية خلق عدم الوحدة واستخدام بعضهم ضد بعض .

طبائعه بعد ، ولم يروض على عادات خلقية تتناسب وفطرته ، فإذا نوقش في خطأ تقليده أصر عليه وسرد تأييداً لإصراره أقوال الساسة الانكليز والعرف الدستوري في البرلمان الانكليزي . وأولى به أن ينظر إلى الواقع وفي أي شعب هو يعيش . أولى به أن يتعلم خواص الشعوب بدل أن يحلق في خيال نظري « قانوني » لا طائل تحته . ولكن ميله الثقافي هو الذي حدد له نهاية الطريق وأمل عليه برنامج السير

ومن تنقف بالثقافة السويسرية يستهويه نظام التعليم ونظام الأسرة فيحاول تقليد الشعب السويسري ، أو بمباراة أخرى يضطر أن يسير في طريق ميوله الثقافية ، والتعليمية — وليس إلا طريق التقليد طبعاً — ثم لا يلبث أن يرى نتيجة تقليده بين يديه خسارة ، لأن المصري في طبعه وفي ميوله الفرزية غير السويسري الذي هو نفسه بغير نفسه — وبناء على هذا يتغير نظام تعليمه — في منطقة أخرى من مناطق الاتحاد السويسري . والأسرة المصرية التي حددت عاداتها طريق سلوكها في الحياة وعين دينها ولنيتها طريق تفكيرها وفهمها لما يحيط بها ، غير الأسرة السويسرية التي تتطلب أيضاً بحكم الوراثة وبحكم العادات وطبيعة البلاد أسلوباً في التمايم خاصاً بها

وهكذا دواليك نجد العمل الجدي لهذه الفئة تقليداً سلبياً فلما يتحول إلى محاكاة إيجابية ، إلى « التمهيد » الذي هو عملية نفسية يقوم بها الفرد كالأمة ، عملية تتطلب أولاً أن تنشأ الأفراد تنشئة وطنية ثم تزود بثقافة أخرى أجنبية . وإذن يكون عمل الفرد كعمل الأمة مصبوغاً بصبغة وطنية وفي الوقت نفسه مسيراً لخطي الأم الراقية . فالأمة اليابانية مثلاً تقلد الحضارة الغربية ولكنه تقليد إيجابي ، لأنها تنظر إليها ثم تحاكيها لا في صورتها الأولى ولكن في صورة يابانية شرقية بعد ما تكون قد مزجت بينها وبين حضارتها الموروثة ووفقت بينهما . وهو لهذا تقليد فيما ينفع ، تقليد لا يمس بالخطر العوامل الأولى السكونية لحضارة الأمة ، كأمة مستقلة

فجهل الوطن وما فيه والنزوع إلى التلون بلون غربي — كما هي النتيجة الحتمية لأسلوب هذه المدرسة — من الأسباب القوية لهذا التقليد السلبي ؛ ثم اختلاف الزعة نحو هذا التلون ،

يتحدة في غرض الدعاية — كانت وجهة هذه الفئة الحاكمة مصوبة على العموم نحو ظواهر المدنية الغربية ، واقتباس ما يوحى به ميلها لثقافي ، لا اقتباس ما قد يتفق مع مدنية الأمة وثقافتها القديمة بما يتطلبه الشعب ولا يتعارض مع قوانينه الخلقية وسننه الطبيعية . وهنا نجد مظاهر شتى لهذا التقليد أنشأتها ميول الثقافة الأجنبية المختلفة . فن تنقف بالثقافة الفرنسية من تلك الفئة — وهو عدد كبير — كان الشل الأعلى في نظره حضارة فرنسا وحرية فرنسا لزعومة ، وعمد إلى التقليد في مظاهر الحضارة الفرنسية ، وإلى اقتباس من القانون الفرنسي ، لأنه يمثل في نفسه ، كما تلقن ، صورة العدالة ، وينطوي في نظره على « حب » الحرية وتقديس معنى إنسانية — وما كان القانون الفرنسي ، ولا أي قانون وضى آخر يمثل في يوم من الأيام صورة العدالة على الإطلاق ، ولا ينطوي على حب الحرية للحرية نفسها ، ولا يقدر الإنسانية للإنسانية ؛ وإلا أعطي القسوة صفة خلقية ، وأنكر على الوطني المستعمر حقه الطبيعي في الحياة مادام في ذلك حفظ السيادة الفرنسية . وما شجرة لنا بحب العدالة وبحب الحرية وتقديس الإنسانية إلا لما قامت من الثورة ، كرد فعل نفسي ضد حكم الظلم والاستبداد ؛ ثم تنقل بعد ذلك استغلالاً أدبياً في صالحها . وللإرساليات التعليمية الدعاية به وخصوصاً في الشرق قسط غير قليل . ثم تكون بجة هذا التقليد عكسية ، ونهاية الاقتباس خاطئة ، لأن مصر برقية غير فرنسا الغربية ، ومصر الضعيفة الحديثة النشأة غير فرنسا المستعمرة . وبالرغم من ظهور الخطأ وعكسية النتيجة لا يدير لد وجهه نحو أمته ويدرس حالها النفسية والاجتماعية ، ثم بس ما تدعو إليه هذه الدراسة ، لأنه لم يألف الأمة ولم يعرفها . طفولته

ومن تنقف بالثقافة الانكليزية عشق تقاليد الأمة الانكليزية لمج على الأخص بالبرلمان الانكليزي وبمراقبة الدستور الانكليزي نظام الأحزاب الانكليزية وبتمتع الأقلية بحرية المعارضة ، فيهرى تأليه تقليد انكلترا في مظاهرها الدستورية ونظامها البرلماني ؛ لكنه يخطئ أيضاً في تقليده ، لأن الشعب المصري ذو صفات بية تباير تمام التباير صفات الشعب الانكليزي ؛ له طريق آخر التفكير وأسلوب آخر في المعاملة ؛ هو شعب ناشئ لم تتركز

تقاربهما في الفكرة، ولكن ما أبعد المسافة بين توليها شؤون تلك الجامعة العالية

وإذا كانت روح السياسة العامة الآن للدولة مشبعة بمجاملة الأجانب ومنحهم حرية كاملة في تعليم جاليتهم وعدم إلزامهم بثقافة البلد الوطنية — كما هو الشأن في البلاد الأوربية نفسها — فلا يصح أن تقصر تلك السياسة في حق أبناء الأمة وتكل أمر تربيته إلى جهة أخرى غير الأمة نفسها. يجب أن تفهم حد المجاملة وتذكر ما ينطوي عليه حق الأمة في استقلالها وحريتها وإذا كانت وزارة المعارف لليوم تنمي بالثقافة الوطنية بعض العناية فيجب أن يكون الدافع لها عليها مصلحة الوطن والعمل على تحقيق استقلال الأمة لا الرغبة في كسب عواطف الشعب أو استئالة طائفة منه خاصة، فإكثر تنوير الشعب في عواطفه، ولكن ما أثبتته على حب من أخلص إليه في خدمته !

محمد البرهي قرقر

دكتور في الفلسفة وعلم النفس

وعضو بنة الامام الشيخ « محمد عبده »

تبعا لاختلاف نوع الثقافة، من أكبر العوامل في كثرة التغير والتعديل اليوم في سياسة الأمة التشريعية والتعليمية

وربما تكون تبعة المدرسة الثالثة، وهي مدارس وزارة المعارف، في هذا التقليد أقل من المدرسة السابقة، ومع ذلك فعملها تبعة كبيرة أيضاً، لأنها لم ترسم لها خطة تعليمية وطنية، أو أرغمت، فطاوعت، على السير وراء سياسة استعمارية، سياسة أوربية أجنبية. فالأتجاه الذي توحى به وتخلقه في تلامذتها لا يخلو من مبالغة في عظمة الغرب واحترام المدنية الغربية، كما بلغ شيء وصل إليه العقل الانساني — ولكن لا لخدمة الانسانية ولكن لسيادة القوى — وذلك يقوى غريزة التقليد في الطفل ويدفعها إلى ناحية معينة قلما تحيد عنها أو تتصرف في تقليدها؛ ثم في الوقت نفسه لا يخلو ذلك الاتجاه من النظر إلى الشرق كوطن وإلى تقاليده ودينه ولغته كتمومات لثقافته من إلقاء نظرة بسيطة عليها قلما يصحبها احترام أو يتبعها تقديس مما يدعو إلى الارتباط بها والحنين إليها

وهكذا يسير الشعب إلى غير وطنه ويقاد في غير طريقه الطبيعي ويدفع به في كفاح لم يتهيأ ولن يتهيأ له، وهو كفاح ضد الطبيعة ومقتضياتها؛ وهيهات أن يفوز إن لم تهلكه الحرب هلاكاً بطيئاً، وذلك شر أنواع الهلاك وآله

فبدأ التقليد ليس معيماً إذا كان إيجابياً، لأنه إلى جانب الفكرة الخالقة والعقل المستقل في الانشاء من عوامل تقدم الأمة، فما كان لأمة أن تستقل في نهضتها العقلية بنفسها ولكن يجب عليها أن تكييفها بشخصيتها وطابعها. وهذا التكييف نفسه مدين إلى حد كبير بالاعتماد على ثقافة الأمة الموروثة أو هو نفسه المحافظة على تلك الثقافة والاعتزاز بها

واليوم آن للأزهر أن يعمل على تأدية رسالته، من ربط حاضر الأمة بماضيا، في ثبات وجراة؛ وهي رسالة شاقة، ولكنه راعي الواقع، فلا يدري إنسان متى تنها الفرصة للأزهر من جديد، فيمنحه الدهر رجلاً مستقلاً الفكر، قوى الإرادة، صادق العزيمة، متفهماً للحياة كما منحه في السابق رجل^(١) التاريخ والإصلاح، وكما يمنحه اليوم بصنوه^(٢). فما أشد

(١) الأستاذ الامام الشيخ محمد عبده

(٢) الأستاذ الأكبر الرازي

(١) خاتمي وقصص أخرى

(٢) وكيل البريد وقصص أخرى

مجموعتان من أقاصيص رابندرات طاغور

ترجمة عبد اللطيف النشار

(٣) جنة فرعون وقصائد أخرى

(٤) نار موسى وقصائد أخرى

ديوانان من شعر عبد اللطيف النشار

(٥) الاسكندر

رواية تاريخية عن حياة الفاتح الكبير

ترجمة عبد اللطيف النشار

ثمان هذه الكتب الخمسة عشرة قروش

بما في ذلك أجرة البريد

وتطلب بالبريد من صاحبها بعنوانه :

١٨ شارع الایمادیة بمحرم بك بالاسكندرية